على طرف لساني

على طرف لساني

شربل داغر

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف:

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٣/١٥١٢٥
I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 241 – 3

على طرف لساني

شعر

شربل داغر

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٢٤١ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١-

أ- العنوان

رقم الإيداع / ١٥١٢٥ / ٢٠١٣

"أما رأيتَ الدهر كيف يجري؟
يُظهر ما أكتمه من عمري
بأحرفٍ يَخطُّها في شعري
يمحو بها غضَّ الشباب النضر
إذا محا سطراً بدا في سطرِ"

(ابن الرومي، "الديوان"، ص 3،392).

"(...) لولا مخاطبتي إياكَ لم ترني"

(المتنبي، "الديوان"، ص7).

"آخر هو من أحب، وأكره نفسي؛ لكن هذا الآخر يتحول إلى صخرة إن فتحتُ أجنحتي؛ لو وقعتُ أرضاً، صعد إلى السماء؛ حين لا أتوانى عن تعقبه لا يتوانى عن الهرب؛ وعلى نداءاتي يبقى من دون جواب؛ وكلما بحثت عنه، كلما اختفى من نداءاتي"

(جيوردانو برونو، "صخب بطولي"، ص 158).

المحتويات

- في الأمر ما يدعو إلى الرثاء، لا إلى النشيد 11
- الشهداء يعودون فرادى 16
- بلى، كنتُ هنا 18
- موتانا اليقظون 19
- كان لهم إلهٌ يتوجهون إليه إذ يبكون 21
- حتى حين نكون صغاراً 23
- لأفعال المستقبل عدة خفيفة 25
- يا لتعاسة الماشي 28
- إذ نُقبل على الحياة 29
- الناجي من موت محتم 32
- يراني، يراني، يراني... 33
- قامة الظل مديدة 34
- مثل 36
- مسمار 37
- حطبٌ في سلة المدفأة 38
- ما كنت أرى إليه مثل حدود 39
- على رأسه قبعة 41

- أُمضي 42
- "تُعوِّض السعادة بالعلو عما ينقصها في الطول" 44
- هكذا أنا 46
- يتبرم الطلل 48
- المستلقون في برودة الأودية 50
- اللغة أمٌّ 52
- لفظٌ على طرف لساني 53
- فيما 55
- كتبتُ قصيدة على حاسوبي 57
- للقصيدة جرس 59
- مستودع قصيدة 63
- ينصب الشاعر في القصيدة أفخاخاً 64
- وجه القصيدة وشيك 66
- القصيدة تنظر 67
- الدلو تحت المزراب 68
- حبة جوز 70
- من كوة الزنزانة 72
- اللفظ حجر كريم 73
- أأنت أيضاً!؟ 75
- مثل رامبو 76
- ارتختْ العبارة 77

- الغيمة حانية 78
- أي مأدبة 80
- بين قمر وشجرة كرز في قصيدة يابانية 81
- لولا القصيدة 82
- القصيدة خابية 84
- سحبَ من الغسالة كلماته 85
- هدف مستلحق 86
- ينابيع جوفية 87
- للترجمة زيارة مفتوحة 89
- ترود الترجمة ليلاً 91
- في غرفة المترجمين 93
- Lost in translation 95
- سطور هواء 96
- نداوة في راحة يدي 98
- مُعلَّقة 99
- رحابة الاستضافة 100
- كنتُ قد اعتذرتُ منها 101
- يدي على أنها وجهي 103
- هذه الجالسة 105
- للحبقة أنامل كثيرة 106
- بقدر ما تلتهم حباتِ الكرز 107

- مثل امرىء القيس 108
- من بعيد 109
- حكمة مؤجلة 110
- من دون أن تعود 111
- اكتفاء 112
- الزهرة أحنت رأسها 113
- الدمعة تطفو 114
- تندس، تندس 116
- هذه 117
- هذا 118
- لحم مقدَّد 119
- بونظاي 120
- إذ أرى في صورة 122
- أوهامي شهواتي 123
- من دون أن يكون 124
- إطار صورة 125
- غريبان في عتمة البهجة 144

في الأمر ما يدعو إلى الرثاء، لا إلى النشيد

في الأمر ما يدعو إلى الرثاء، لا إلى النشيد

طالما أنني انتهيت إلى الإقرار بأن من سبقني إلى الحرب تعجلَ في قتلي، و لم يبقَ سواه لكي يخبر عني، بدلاً مني.

غير أنه لم يقتلني واقعاً، بل أنا الذي قتلته، فضلاً عن أنني أحسن – أفضل منه – رواية ما جرى.

أنا لم أقتله في حاصل الأمر، ولا هو قتلني في نهاية المطاف: تبادلنا أصابعنا فقط، ما يتوجب في عمل المحترِفين.

كان في إمكانه التأخر، والمجيء متى شاء، من دون أن يصطحب معه مقاتلين آخرين، سواء بربطة عنق أو بقبعة مرقطة؛

سيّان إن نسي "الكتابَ الأحمر" في سيارته الصغيرة فلا يقوى على استشارته مثل مرشد في معابد المراهقة، أو أسرعَ إلى إخفاء رهبته من ليل المتاريس في الثرثرة والتضاحك؛

لا بأسَ إن ترددَ في فعلته، أو تباطأ في التقدم في بهمة المحاولة، أو أمسكَ عن التنفس قليلاً حين لمع في النصل بريق عينيه مثل عاشق في ليلته الأولى،

فأنا كنت أنتظر منذ وقت فتى أشدَّ عزيمة مني، ليقتلني.

هناك من يَقتل والده لكي يكبر،

هناك من يَقتل أمه لكي يحسن معاشرة النساء،

هناك من يَقتل معلمَه لكي يشتد ساعده في الرماية،

هناك من يَقتل قبل صياح الديك، أو بعده، من فرط نقمته، لكي يتفرغ لحشو الرصاصات من جديد،

هناك من يَقتل براءته فيتحول إلى بذيء في مشادة، ولصٍّ في بيت جاره،

وجنرالٍ في أعين المسنات القانطات من كونهن لن يعشن من الحروب غير أخبارها على أجهزة الترانزستور،

هناك من يَقتل – مثله – لكي يتكفل غيره برواية ما جرى له.

أعترفُ من دون خجل بأنني عشت حياة سرية، أكثر من حياة، بسيقان كثيرة، لكنني اقترفت جريمة واحدة كنت شاهدَها الوحيد، بعد أن دعاني بنفسه، من دون كاميرا أو آلة تسجيل، على أنني أستطيع ذات يوم أن أروي... ذلك أنه كان مدركاً كوني محباً للقصص البوليسية، أقرأها بالمقلوب في المرة الأولى، لكي أتعقب القاتل في المرة الثانية منذ خطواته الأولى فوق سطور الجريمة... أن أروي ما يحدث من دون جهد، ما يسقط مثل ثمرة ناضجة في سلتها، طالما أنه يتم شحذ الفؤوس من

دون كلل، وينصرفون إلى القتل، على مقربة مني، في فيء العائلات الظليل.

لطالما أمضيت ساعات لهوي في سنِّ السكاكين،

وتمرنتُ، في المشادة أو عبر النوافذ الموصدة، على إخفائها في عتمة حذائي، أو التباهي بها يوم العيد مثل نيشان المدرسة،

قبل أن تصبح امتداداً ليدي،

امتداداً تلقائياً

ليدي الأرجوانية...

هكذا احتجتُ لسكين لتدوين رسالة حبي الأول

على شجرة،

قبل أن أنصرف إلى تسجيل اسمها بأحرفه الأولى فوق جدران الشارع الخلفي لشارعها، آملاً بأن تكتشفه وحدها مثل رسالة سرية لا يحسن قراءتها غير مستلمها.

واحتجتُ لسكين أخرى تناسب قبعة الإخفاء، لسكين تختفي بدورها ما أن تنقضي الحاجة إليها، أو تتحول إلى ساعة في اليد، أو إلى وسخ بسيط على راحة اليد لا ألبث أن أمسحه من جبهتي، فلا تبقى علامة منه تحت قبعة الإخفاء.

سكاكيني
كلبٌ أعمى
ووسخ،
يشم الجثث واحدة واحدة
قبل أن يأنف منها.

في الأمر ما يدعو إلى الرثاء، لا إلى النشيد
طالما أنني أشفقتُ على حالي بعد موتي: وحيداً في موتي،
ومن دون نشيد.

الشهداء يعودون فرادى

الشهداء يعودون فرادى:

منهم من عاد إلى الفرن من دون أن يجد الشُّباك الذي تسلم فيه أرغفة الصباح مع رسالة تأخر في فتحها لكون "التعليمات" لم تلحظ وجود عابرين فوق الجادة التي ضاقت بنظرات الواقفات على شرفاتهن، اللواتي أنزلن سلالهن إلى الباعة الثابتين والمتجولين...

الشهداء يجلسون القرفصاء

في القصيدة،

لا أكثر...

فلا يستريحون فيها.
ذلك أن الشاعر طلبَ منهم
أن يبقوا يقظين
في انتظار بلوغ القارىء
عتبة العتمة.

الشهيد شجرة
من دون أغصان،
للشجرة أصابع من دون أن تقوى على التصفيق.

بلى، كنتُ هنا

بلى، كنتُ هنا:
لم أصفق قبل أن ينهي الساحر جملته الأخيرة،
لم أدفع المتهالك فوق كرسيه صوب السقوط،
لم أتفوه بأي كلمة في الجنازة...

بلى، كنت معهم: في هذا الصحن البارد، نقتات لحم أجسادنا بصمت وإذعان...

بلى، وإن غافلاً عما يفعلون
من وراء زجاج نظارتي.

موتانا اليقظون

موتانا اليقظون
الساهرون
يمرِّنون أصابعنا على العزف العاطفي
وحناجرَنا على النشيد الوطني...

موتانا الأليفون،
الهانئون في رياضهم البليدة،
القابضون على رؤوسنا مقاعد كرسي لا يتوانى عن الاهتزاز،
لا ينفكون عن معاشرتنا،

عن نُصحنا
بأن الموت أجدى
من أن نبقى قانعين
في تابوت الثلج.

موتانا يقفون خلفنا
ويُقَلِّبون أوراق "النوتة" لنا،
لأصابعنا الطرية،
فوق بيانو الحياة.

كان لهم إلهٌ يتوجهون إليه إذ يبكون

كان لهم إلهٌ يتوجهون إليه إذ يبكون،
ويتمسكون بحبات سبحته إذ يتساقطون في وهدة الكآبة،
وكلمةٌ منه كانت تكفيهم لكي يرتدعوا عن حماقاتهم،

بخلافه:
يقتل آلافاً في اليوم الواحد
ولا يلبث أن ينام بمجرد أن يضع رأسه على مخدته...

بخلافي أيضاً، إذ أمضي الليلة معذَّباً
من دون أن أكون قد قتلتُ ذبابة في نهاري،

وليس لي من أتوجه إليه
في عزلتي، وفي خرسي
غير هذه الكلمات.

حتى حين نكون صغاراً

حتى حين نكون صغاراً
يحلو لنا أن نتصفح صور الأمس:
نتذكر، ونروي ما حصل لنا فيها...

أما الشاعر فلا يقوى على ذلك، إذ يطلبون منه الدخول إلى قصائده:

يزورها ربما،
لكنه يفشل حتماً في أن يكون دليلاً فيها،
عما انقضى،

مثل انفعال صاعق،
في كونٍ له من رؤوس حروفه جذور...

حين نكون صغاراً
يحلو لنا أن نكبر،
أن نمثِّل أدوارنا،
وهو ما يفعله الشاعر
في طفولات اللغة.

لأفعال المستقبل عدة خفيفة

لأفعال المستقبل عدة خفيفة:

سين أو سوف، كما تقول العربية.

غير أنني خبرتُ، بعد انقضاء ما سبق أن كتبت عنه، كوننا لسنا بعرافين، ولا بمطربي وعود،

طالما أن ما نفعله لا يتعدى التقدم

بعدة خفيفة:

أن يرتمي ما نقوله في مدى مفتوح

مما نتعهد به، أو نتمناه.

لأفعال الماضي عدة ثقيلة

مما يسبق أصابعنا

إلى الأشكال والصور،

ومما يستقبلها.

***

لو أتيتَ ليلاً من الجهة عينها التي لمع فيها لون القمر فوق شفتها السفلى،

لو أقبلتَ بحماسة الطير إلى بريق الغصن النابت في صباح الطفولة،

لو عدتَ في أي وقت،

إلى أي مكان،

إلى القصيدة أو خارجها،

فستجد العمر غائباً،

ستجدْه في ما يشغلُه،

مستغرقاً في أن يكون،
من دون أن تكون له قدرة، ولا رغبة،
في حسبان الوقت،
فيما الموتى – وحدهم – يعرفون
تاريخ ميلادهم من تاريخ وفاتهم،
ويميزون بين ماض مضى فعلاً، ومستقبلٍ لا يشرعون فيه،
طالما أنهم يتهالكون
في عدتهم الخفيفة.

يا لتعاسة الماشي

يا لتعاسة الماشي
إذ يمشي بين النقاط:
لا يتوانى عن النط
تحت معطف حكمته،
بينما أنزع صندلي
لكي أحسن ملامسة الوحل النازل صوب ارتعاشات البرد.

إذ نُقبل على الحياة

إذ نُقبل على الحياة
تبدو الحياة مسحورة، مدعاةً لاكتشاف،
حتى إن الأشياء فيها تطير من تلقاء نفسها،
تبتسم فيما تودع،
وتتماهل في السقوط عند انقضاء الوقت.

ما أن نتقدم في الحياة
تصبح غريبة، غير مدعاة لأي اكتشاف
كأنك بلغت حائطاً
طالما أننا لا نحسن المداورة، ولا النط،

ونعتقد بأنها ستستفيق ذات يوم،
وتعاود سيرها – كما نظن أن عليها أن تسير عليه...

***

ما أن نتقدم في الحياة
لا تنتظرنا الحياة إذ نتأخر، أو نتباطأ في الفراش،
لا تمسد شعرنا إن غضبنا،
لا تدع المراهقة اللاهية تتوقف من جديد
أمام الباب عينه،
فالباب عينه يصلح
للدخول كما للخروج...

الحياة لا تسرع الخطى،
لكنك تصل متأخراً:
تقول الحياة.

ما كنتَ تبدده بنزق المقامر،
تمعنُ في الشدِّ عليه، في قبضة يدك،
مثل قرش الناجي من الغرق:
تقول الحياة مجدداً.

إذ نُقبل على الحياة،
راغبين في "نهاية سعيدة"،
نعيش الفيلم بالمقلوب
وتكون نهايته ما نبدأ به.

الناجي من موت محتم

الناجي من موت محتم
شبحٌ متعجل، وإن تعثَّرَ في خطوه.
والماشي في حذائه يتمهل في أن يكون شبحاً أبيض، شبحاً راسخاً.

في دعساتنا الأولى نتعجل الوصول، ولا نلبث أن نحسب أين لقدمنا أن تقع، فكيف إلى أين تصل، إلى أين لا تريد أن تصل!

الشبح هالة العابر:
قلما يلتقيان في "نهاية سعيدة".

يراني، يراني، يراني....

الذي يتقدم صوبي
أتقدمُ صوبه بدوري،
لكن خطاه أسرع من خطاي.

أكتب عنه،
وهو يراني:

أخاف،
من فرط ولعي بالحياة.

قامة الظل مديدة

قامة الظل مديدة
بخلاف الهارب منها،
إذ يتمنى أن تعلو أقدامه فوق البنايات،
أن يتسلق الغيمة بلمح البصر
وأن يندس في عتمة البياض...

قامة الظل مديدة:
إذ يعدو الهارب، تعدو
إذ يتوقف، تتثاءب...

لا ينفكان عن المخاصمة،
عن شد لحاف العمر
فوق جسد أضيق من سرير.

مثل

مثل نقاط الماء

المتقطعة

المتتابعة

من حنفية لم يُحسنوا إغلاقها،

من حنفية لن يلبث ماؤها

أن ينقطع

فجأة.

مسمار

مسمار في لوحي
يؤلمني
ويثبتني في كياني.

حطبٌ في سلة المدفأة

حطبٌ في سلة المدفأة

ينظر إلى جمر يخبو،

مفتوناً،

منجذباً

باندفاعة الفتى الذي درج فوق رصيف بأجنحةِ طائرة ورقية ما توانى عن رفعها من دون أن ترتفع،

ما توانى عن مخاطبتها في سره،

في عتمته المشعة.

ما كنت أرى إليه مثل حدود

ما كنت أرى إليه مثل حدود

امحى،

بل صرتُ أدور وأدور،

أستعيد خطاي

وأمشي بالعرض أحياناً...

ما كنت أرى إليه مثل حدود

يتقلب،

وأقَلِّبه،

على أنني جزلٌ فيه،
في احتماله،
أكيدٌ وملتبس،
ساعٍ ومنقضٍ
في الوقت عينه.

على رأسه قبعة

على رأسه قبعة،
في يده شمعة،
في خطواته
قلقُ وشهوةُ عابرِ سبيل
يرى إلى رمل الطريق مثل حظ أخير.

أُمضي

أُمضي اليوم بعد اليوم،
من دون أن أشعر بحمايته لي،
إن أعرى،
بحمايتي له
إن يعرى؛

أُمضيها،
من دون أن أتلهف لمسح العرق عن جبتهه إذ يشقى في عمله...

كأننا اثنان يتباعدان،

فلا يلتقيان

إلا في توتر النظر وتراخي المسافة.

"تُعوِّض السعادة بالعلو
عما ينقصها في الطول" (*)

روبرت فروست

هذا الفرح الذي يداهمني

مباغتٌ،

لم تنذر به غمامة صيف،

ولا استدارت ابتسامتي مثل تفاحة نضجت مديداً قبل أن تسقط من على غصنها...

أهو الضوء – إذ ينبثق – يمحو ما عداه؟

(*) (happiness makes up in height for what it lacks in length). (Robert frost).

أهو اللفظ – إذ ينبني – يعوض عما فاته،
عما يتفقده ولا يلقاه؟

هكذا أنا

هكذا أنا، وقد قرأت في "بخلاء" الجاحظ، أن أخوين لا يملكان سوى ثوب واحد: إذ يخرج أحدهما، يبقى الآخر في البيت.

أنا الراحل،

أنت القادمة:

نلتقي،

ولكن في اتجاهين مختلفين.

***

دعني
الآن
أبكي
في وداعي.

***

لا تكترثْ بالأمر،
ستكون – إذ ذاك – قد رحلت.

***

يتبرم الطلل

يتبرم الطلل
من كون الشعراء وقفوا واستوقفوا،
بكوا وأعادوا البكاء،
من دون أن يبادر أحدهم إلى رفع الغبار عن المشاعر،
وإلى إقامة جدارية لمن عبروا وسيعبرون في ممرات القصيدة الضيقة.

النجوم نفسها،
حتى النجوم،

تبرمت بدورها لفرط ما استدرجوها إلى مماحكات بلاغية،
من دون أن يبادر أحدهم
إلى ما يخفف من انخطاف الفراشات أمام الضوء.

المستلقون في برودة الأودية

المستلقون في برودة الأودية
لا يستريحون،
بل يصيخون السمعَ لوقعِ أقدام النازلين من تعاساتهم...

اليقظون وراء البوابات المقفلة
لا يغفلون عما يصيب غيرهم،
وإنما يكتفون بطنين ما يصلهم
من أفعال وحركات...

المنكبون على حروفهم لا يكتبون،
يبكون شركاء خاسرين
وإن لم يقامروا.

اللغة أمٌّ

اللغة أمٌّ،
الشاعر رضيعُها ويتيمُها.

أعمى،
مثل أوديب تماماً،
يعاشرها المرة تلو المرة،
قبل أن تنعقد المأساة
في كتاب.

لفظٌ على طرف لساني

لفظٌ على طرف لساني
يطرق على شُباكي،
فيما أتشاغل بالبحث عنه بين أوراقي.

قد ألقاه فجأة في زحمة قطار،
فيكتفي بعبوره الرقيق
مثل عطر
أو التفاتة عين...

قد يدفعني بكتفه فوق رصيف المغادرة
فيما أُسرع الخطى صوب رصيف الوصول...

قد يضع وردة في مزلاج بابي...

أسأل عند عودتي:
من نسيتُ؟ من لا ينساني؟
من يكتبني بأصابع خفية؟
من يلقاني في غفلة مني؟
من يسبقني إلى شفتي؟

لفظٌ على طرف لساني
يتقدمني
مثل عصا لأعمى،
ويستقبلني
حين أفتح له بابي.

فيما

ينظمون قصائد عن البحر
فيما أستعذب الاستلقاء على الضفاف؛

يبنون البيت سطراً سطراً لكي يرتفعوا معه فوق منصة،
عندما أتحرى عما يلمع، في الليل،
في عين العبارة؛

يرتسمون في طوابير صالحة لقافية
بينما أبحث عن نثر ذهبي في كومة قش.

هكذا: لا يدخلون إليها قبل أن تدخل قبلهم البحار والسطور
والمنصات والطوابير والقوافي وخلافها،
فيما أتخفف من ثيابي
وترق ورقتي
مثل جسد شفاف.

كتبتُ قصيدة على حاسوبي

كتبتُ قصيدة على حاسوبي ما لبثتُ أن بددتُها بحركة غير مقصودة.

هذه القصيدة، التي كتبتها للتو، تذكرْتُها، من دون أن أحسن استعادتها.

ولما سعيت جاهداً إلى قيامها من جديد، كتبت قصيدة غيرها.

هذا العزاء لا يكفي،

يبقيني حزيناً،

لأن ما تبنيه لم يقمْ قبل لحظتها، لكي نتمشى في خريطته، وفي أيادينا الزهور والكتب والمناديل لتوزيعها في أمكنتها الباردة...

لا يكفي حتى عند الأمهات،

ولا عندي،

لأن ما أفتقدُه يبقى في أنني كتبتُ ما لن يسعني التعرف إليه خارجها.

الكلمات ستعود إليها،

وربما بعض الجمل،

أما القشعريرة التي نشبت بين الحروف، بين الصور والأشياء، بين نَفَسي وأصابعي، فقد انقضت تماماً،

بنزق البرق،

وعجلة الحلم،

من دون أن تكون وديعة

أو كنزاً مفقوداً.

للقصيدة جرس

للقصيدة جرس
وفانوس أمام بابها،
ما يكفي للوقوف على عتبتها...
لأن الداخل إليها يحتاج إلى معاشرة الظلال،
وإلى تبين الداكن من الحالك،
وقد يحتاج إلى رفع أصابعه
مثل شموع.

للقصيدة عنوان:

ضعْ الحذاء خارجاً،
لا توقظ من غفا للتو بعد مشاغلة نفسه في الحروف؛

افتحْ ذراعيكَ
فأنتَ مدعو لا للتمشي،
وإنما إلى الطيران.

***

للقصيدة شرفة من دون صالة اجتماع:
لكَ أن تمعن النظر في خلائها
إلى أن تتحقق من أن لك أصدقاء سريين يخبُّون فوق جيادهم مُقبلين...

ما سقط للتو بمجرد وقوفه،
ما يغفو في بلادته مثل مسنَّة في كرسيها الميكانيكي،
ما لا يكون، ولن يكون،
ما ينتظر في صمته باكياً
تقوى عليه القصيدة
وحدها
إذ تنشط الرغبة فيها:
تضيق ولا تلبث أن تستفيق.

للقصيدة شرفة،
جسر
لمن يُقبل في اتجاهها
ولمن يخرج منها لملاقاته،
ما يقع في النَّفَس،

في الانتظار،
من دون موعد أكيد.

***

بيت القصيدة شاغر
في عيون شاغليه الجدد:
يقطعون بفؤوسهم اللامعة
الأشجار المستقيمة الرأي،
والأوتاد المسنونة مثل نهايات القافية...

قيد البناء،
بنوافذه العديدة التي تفضي على خارجها.

مستودع قصيدة

أبقى ريلكه ملائكة بين سطر وسطر لكي تحسن النزول،

وانصرف واضعُ أنطولوجيا "الهايكو" إلى توزيع الأشجار والحيوانات في فقرات مناسبة،

فيما أدار رامبو ظهره، و لم يَعُد...

إلا أن السؤال الذي يؤرق صباح هذه القصيدة:

أيجوز للبعض أن يسأل الإجاصة عن استدارتها

وعن عصيرها أيضاً؟

ينصب الشاعر في القصيدة أفخاخاً

ينصب الشاعر في القصيدة أفخاخاً، ويمضي
من دون أن يَعرف من خرجَ منها، ومن بقي فيها.
كما تنصب القصيدة مكائد ما أن ينقفل بابها...

قد يظن البصاص أن الشاعر توارى خلف باب الاستعارة، أو تحت سرير التشبيه،
قد يظن الشاعر أنها أنكرته بمجرد أن أفردت ضفيرتها في عيون البصاصين...
غير أن ما خفي عنه، وما خفي عنها، هو أن هناك صَبية تختفي بحكم لعبة طفولية عن متعقبها، ما يقضي بالتفتيش عنها،

وبالتفتيش من جديد إن فشل:

يا لسعادتها إذ يخطىء في مباغتتها، في تحسس جسدها الطري تحت الفراش،

إذ يستعيد البحث عنها

في ما بات مسكنهما

معاً

من دون الشاعر!

وجهُ القصيدة وشيك

وجهُ القصيدة وشيك
من دون أن ألمسه،
ولها حيرة الحبلى إذ تختار ثياب الوليد...

ساقُ القصيدة منفرد،
لكن الدروب متأهبة في عتمة خطواتها...

أينما تمضي، أينما تحل،
سواء تقدمتْ أم تراجعت،
تُلقي القصيدة مرساتها
من دون يابسة.

القصيدة تنظر

القصيدة تنظر من وراء رؤوس حروفها إلى ما يقع عليه نظرها
فيما يقع نظرُه عليها
غريباً
أمام بوابتها الموصدة.

الدلو تحت المزراب

الدلو تحت المزراب

رزين،

صاغر

لما يصله...

من أين له أن يفتح أبواب القصيدة

على رياح التسكع

وبرق المفاجآت؟

له، باقتصاد البخيل وتدبيره،
أن يكتفي من المطر بنقاط قليلة،
أن تكون القصيدة
نبتةً مشرئبة في الثلج.

حبة جوز

حبة جوز
وحيدة على غصنها،
في عيني الناظر إليها:
موعودة، مشتهاة...

من يدري؟
لعلها تُكافىء الصابر في شتائه...

من يدري؟
لعلها سئمتْ انتظاراً،
لعلها استنفدتْ شوقَها...

من يدري؟
لعلها تسقط في قرطل القصيدة.

من كـوة الزنزانة

من كوة الزنزانة
تبدو السماء أرحب،
والبراعم لامعة ببريق شمس أبدية...

من كوة الزنزانة
تبدو الأصابع كما هي: أقصر من أن تبلغ القضبان،
فيما القدمان تشيخان في حذاء...

من كوة الزنزانة
تتهيأ الاستعارة لتدبير أجنحة للطيران.

اللفظ حجر كريم

اللفظ حجر كريم
فوق عتمة طاولتي،
مثل عود ثقاب
ينير ما حوله.

بساق وحيدة،
بخفة طائر،
يقوى على تسلق المنحدرات
في غصة الكلام.

أعزل،

إلا أن له تصميمَ شاعر روسي في معتَقل بسيبيريا.

ذلك أن القصيدة

لا تحتاج إلا لشفتين.

أأنت أيضاً!؟

لو كانت الكلمات قادرة على الزعيق
مما يحدث لها،
مما يتهددها،
لكانت، من عميق حنجرتها، قالت:
أأنت أيضاً!؟

مثل رامبو

منذ أيام وأيام
لا أقوى على النظر،
مثل طفل، إلى صفحة القمر،
ولا أقوى، مثل رامبو،
على وضع الجَّمال على ركبتَي.

ارتختْ العبارة

ارتختْ العبارة
في محلول الحزن،
في مائه البارد:

منها ما يصفو فيعلو في صدر القارىء،
منها ما يرسب في صدر الشاعر،
في بئر القصيدة.

الغيمة حانية

الغيمةً حانية
على أكتاف الجبال الصاغرة،
على الجالسة في حديقة الكآبة...

الغيمة قصيدة،
ما يبقى في الجبال تحت ذوبان الثلج،
وفي العينين بعد جفاف المناديل...

ندى القصيدة ماء الوجود
فوق ورقة طافية في المجرى،

محمولة مثل سفينة نوح
فوق أنفاس العابرين.

أي مأدبة

أي مأدبة
تكون لشخصين
وإن كانوا كثيرين،
مثل المطالعة
تكون لكثيرين
وإن في الكتاب عينه.

بين قمر وشجرة كرز
في قصيدة يابانية

القارىء يلتقط، في لحظة،
ما جرى بين قمر وشجرة كرز في قصيدة يابانية
فيما يجهد الشاعر، ساهراً، في تعقب
المداعبات في الهواء
لكي يلتقط فيها خيطاً، وتراً...

هذا يكفي – بدل جوقة بكاملها –،
لكي يتنفس النور
في عين القارىء.

لولا القصيدة

لبقيت تائهاً
لولا القصيدة،

لحفرتُ مديداً في المرآة من دون أن أخرج منها
لولا القصيدة،

لاستكنتُ إلى من يُرَبِّتون على كتفي، وينزعون حنجرتي
لولا القصيدة،

لاكتفيتُ بما يرددون إذ يبكون، بما يفعلون إذ يودعون، بما يقولون إذ يتلفظون
لولا القصيدة،

لسرتُ – مثلما دعوني – إلى جانب الطريق،
ولنظرتُ مثل عابر سبيل
لولا القصيدة،

لكنتُ أُتْمتُمها – قصيدتي –، وأرتعب في ظلي،
لخشيتي من أن أكون
فيها
وبها.

القصيدة خابية

القصيدة خابية

فلا تحتاج إلى حصاة لكي تستند إليها.

سحبَ من الغسالة كلماته

سحبَ من الغسالة كلماته
فوجد أن ألوانها قد باخت،
وأنها تحتاج إلى أكثر من مكواة
لكي تزيل عتمة أشباحها
وأنفاس المستلقين فيها.

هدف مستلحَق

الكرة التي لهوتُ بها
سددتْ هدفاً
في مرمى قصيدتي؛

مثل التفاحة
لا يسعها أن تكون نافذة
إلا في قصيدتي.

ينابيع جوفية

مثل السارق، لا المالك أو المستأجر، أتجول
في ما كان لي أن أبنيه،
لي كما لغيري...

اصطفقَ الباب ورائي
إلى غير رجعة
حتى إن لمسة أصابعي
فوق المرآة

انجلتْ على وجوه غيري
ممن يقفون أمامها
بعد انتظار مديد...

لهذا أمشي من دون ندم
وأتقدم من دون خشية
طالما أن من يتبع خطواتي
يرود
مثل الهادي
عن ينابيع جوفية
تطفح
بانفعال الامتنان.

للترجمة زيارة مفتوحة

للترجمة زيارة مفتوحة،
ومائدة،
لضيفٍ قد يأتي جائعاً أو بعد ليل أمس...

الترجمة تتبخترُ عند الحدود،
كائناتٌ ليلية، من دون جواز سفر،
في حقيبتها معاجم وتوقُ الغريب إلى الغريب،
وتعود من حيث أتت إذ تهم بالوصول...

الترجمة زفَّةٌ في عتمة،
تندس في ثياب غيرها بخفة الحبيب،
لكنها تَخرج من باب الخدم.

الترجمة تنأى بنفسها عن المرآة،
فيها ما يُرى وما لا يُرى،
وفيها موجُ الكلام وسفن المواليد.

ترود الترجمة ليلاً

ترود الترجمة ليلاً،
حرة من أي شرطي أو قاض...
إلا أن اللغات تستيقظ من أجلها
متأهبةً أمام بواباتها
بفوانيسها الكريمة...

ترود وتعود،
تمشي وتعدو،
مخافة أن يغفو الكتاب في كرسيه الهزاز،

وتصطفق الألفاظ على الألفاظ
في ضجيج له كاتم للصوت.

في غرفة المترجمين

في غرفة المترجمين
لم تُحسن التعرف على محفظتها،
وجدتْ طربوشاً تونسياً مكان منديلها الليلكي،
ووجبةَ أسنان في كوب ماء.

عادت على أعقابها،
وجدتْ الآلات باردة،
والكراسي باردة،
والجدران باردة
في غرفة المترجمين.

لم يكن بين يديها ما يُثبت هويتها،
ولا في كلامها
ما يبقيها في غرفة المترجمين.

Lost in translation

ما لم تحتفظ به الترجمة

أبقاني

يقظاً

في عينيها.

سطور هواء

تذبل فوق غصنها
الثمرةُ،
ويجف عصيرها
مثل حبة تين فوق سطح بليد،
فيما تدلق شفتي لعابها
من دون انقطاع،
مثل حبة عنب في قصيدة لابن الرومي:

أيُّنا يمسك بالريشة فوق سطور هواء؟

أيُّنا يرتوي؟

نداوة في راحة يدي

نداوةٌ في راحة يدي،
كما لو أن خطوط يدها
أطبقتْ على خطوط يدي
مثل قفلٍ ينجذب إلى مفتاحه،
وفتحةِ ماءٍ تنتشي بمياهها الجوفية.

أشربُ من راحة يدكِ
ماءَ جسدك
المحتبس،
وأتساءل: هل القبلة جُماع؟

مُعلَّقة

يدي بيدك

قبلة مُعلقة.

رحابة استضافة

ليلة بسعة أبد،

في فندق،

بسعة أفق.

كنتُ قد اعتذرتُ منها

كنت قد اعتذرتُ منها
لمّا اقترفتُ من جديد ما سبق لي أن اقترفتُه واعتذرتُ عنه...

هكذا أتكرر،
إلا أن رغبتي جديدة في كل مرة
كما في أول قبلة.

قلتُ لنفسي: لن أفعلها ثانية
قبل أن أقبل على فعلتي من جديد
قبل أن أنسى أنني فعلتها...

ما أفعلُ إن كان ماء شهوتي
يغمر ما عداه،
يستنفرني بما لا تسعه أي طاقة،
مثل مشيئتي الأخيرة والنهائيّة؟

يدي على أنها وجهي

لطالما نظرتُ إلى يدي بوصفها وجهي،
فلا أبالي إن تلعثمتُ
أو استدركتُ، بعد الحوار،
ما فات
ما سقط
ما وقع بين الأيدي
في تمتمات الارتعاشة....

لطالما تسبقني يدي،
تتقدمني،
أبعد من وجهي
مثل وصية مرجأة
ومستحقة.

هذه الجالسة

هذه الجالسة تحت مرمى نظري
تدس قدمها اليمنى في ماء قصيدتي
قبل أن ترفع الأخرى
وتعالج باليدين
السطر تلو السطر،
مخافة أن تمحي الصور
في البخار،
في نَفَس الكلام.

للحبقة أنامل كثيرة

للحبقة أنامل كثيرة
وسيقان مديدة،
حتى إنها – لكثرتها – أخفتْ وجهها،
فلا نعرف ابتسامتها من تكشيرتها...

حتى إنها أخفت عطرها في شعرها
مثل بدوية في خبائها.

بقدر ما تلتهم حباتِ الكرز

بقدر ما تلتهم حباتِ الكرز
يتبدلُ لون وجنتيها؛
وعندما يلمع السيف في لحاظها
تخرج، تتحرى في ليل الشهوة:
هذا ما لم تقله قصيدة قديمة
طالما أنها ما توانت عن النظر إلى مرآة
من دون مرآة.

أما الحكيم الصيني فأفادني، في رسالة إلكترونية، أن الزوجين يتشابهان من فرط المعاشرة.

مثل امرىء القيس

طالما أن القمر يغفو على شُباكها
فإنني أقوى على مشاغلته
وأندس في فراشها
مثل امرىء القيس.

من بعيــد

– لعله يغمرها بيديه...

– لا، إنه ينحني عليها.

– لعله تركها بتصرف القصيدة...

– لا، إنه يقطع الهواء عنها.

– ألا يسع القصيدة الانتظار؟

– لا، قد تختفي قبل جمود الصورة وخفوت الكلام.

حكمة مؤجلة

شجرة الأمنيات

لا تعرى،

بل تذبل.

من دون أن تعود

طلبتْ فنجان قهوة وزجاجة ماء باردة، على ما سمعتُ، وسألتْ الخادم عن حمام السيدات.

وضع الخادم الفنجان والزجاجة على الطاولة المجاورة، و... انتظرتُ من دون أن تأتي.

شربتُ قهوتي، وكتبت هذه الكلمات في انتظار أن تعود:

لعلها تشبه زبونة أخبرني عنها صاحب مقهى آخر قبل سنوات: تحلُّ في المقهى، تطلب طبق أكل وكأس نبيذ، وتمضي من دون أن تعود.

أو لعلها تتخلف عن موعدها، أو تنسى ما طلبت، أو ما كانت عليه، أو أين كانت.

لعلها خرجت من الورقة من دون أن تجد وسيلة للعودة إليها.

اكتفاء

درجات سلم حجري
للصعود أو للهبوط،
من دون أن يصعد أو يهبط
أحدٌ
غير هواء الراحلين الذين لا يحتاجونه.

الزهرة أحنت رأسها

الزهرة أحنت رأسها
مثل عانس
في مقتبل العمر.

الدمعة تطفو

الدمعة تطفو
بعد أن تخلصت من أحمالها؛

الدمعة نجتْ
من أشباحها المتلابسة؛

الدمعة في عراء النظر
شجرة،
نشيد،

ما تقوله العين

عن مشاهدها الخافية:

الدمعة قصيدة محققة،

مستلحَقة.

تندس، تندس...

يتحسس الأعمى برودة الألفاظ،
عفونة الجدران
والفراغ الذي يفضي إلى فراغ...

لا يكيل الأعمى بمكيالين،
يتردد، لكنه لا يعود القهقرى،
طالما أن خطوته تندس في عتمة ظله.

هـذه

هذه نقاط ضوء لا ترسم مشهداً،

وما تخفيه أكثر مما تُظهره.

حتى إن لفظاً مثل: "يلعلع" يكفي في حد ذاته مثل صَدفة سيدة.

هـذا

هذا يصبُّ دموعاً في قنينة صغيرة،
وآخر يشرب من رذاذ ضحكاتها،
فكيف، لمن توقفَ، أن يواري وجهه
من دهشة العابرين!؟

لحـم مقدَّد

زادي في شتائي
أقتاتُه
بمتعة المقتصِد،
وبصبر من يذوق
تفاحة
بعينيه
في صيف هندي.

بونظاي

بونظاي بحجم قصيدة
لمن بحث عن جذورها في طبق صغير،
لمن امتد ساعداه أقل من سطر،
لمن وجدها تتنفس في ضوء الصامتين؛

قصيدة بحجم بونظاي
تمتد في علوها بدل أن تتسع،
ما يكفي لإنارة من يحيط بها؛

عتيقة، لا مُسنة

مقتصِدة، لا بخيلة

فَتيةٌ مجرَّبة،

قصيدة لا تتوانى عن حَمل غيرها فيما تتخفف منه،

مثل طلل جاهلي

لا يحيا إلا في قصيدة:

بونظاي، كتاب،

بين يدي قارىء واحد.

إذ أرى في صورة

إذ أرى، في صورة، إلى طرف شفتي الأيمن الذي تنفرج فيه ابتسامتي، مثل كوة في جدار، أو نسمة ضوء في يوم غائم وماطر، أتذكر طرف شفته الأيمن لما كان – وهو أخي البكر – يكتفي بطيف ابتسامة خشيةَ أن تهدد هيبة رزانته القاعدة على مديد عمره، المتصل عنده، مثل شجرة يزيد عمرها بالعرض، لا بالعلو...

إذ ترى ابنتي إلى نومتي، في القيلولة، توقظني لكي تقول لي: هكذا رأيت جدي ينام، مجتمعاً أو متكوماً كمن يعتذر أو يخاف...

أوهامي شهواتي

أوهامي شهواتي المؤججة قبل أن تنطفىء،
قبل أن تحرق أصابعي،
بعد أن أوقدتْ فوانيس خطاي.

من دون أن يكون

ما يحيط بي من دون أن يكون معطفاً،
ما يدور حولي ويتقدمني من دون أن يكون دليلاً،
ما يصونني إذا كان لي أن أرتطم،
لو كانت لي: هالة.

إطار صورة

(الفسحة بيضاء، مضاءة بكاملها، يحدُّها من الجهة الخلفية جدار أبيض بدوره، ما خلا بقعة في وسطه مستطيلة طولياً، ما يشبه الحيز الذي كانت تشغله صورة أو لوحة، معلقة منذ زمن بعيد.

متكلمون مختلفون، بين رجال ونساء، من دون تمييز بينهم: ينهمكون – ما أن تضاء الفسحة – بالعودة من جديد إلى أمام الإطار الشاغر، بعد أن قاموا – على ما يمكن ترجيحه – بنزع الصورة أو اللوحة من مكانها):

متكلم 1 : أووف! أووف!

متكلم 2 : هذه ليست من الفصحى!

متكلم 3 : قلْ: تنفسوا الصعداء، أخيراً!

متكلمة 1 (متوجهة إلى المتكلمة 2) : قلْ. لا تقلْ... يلتهون بالمناكفة كالعادة، ألا ترين؟

متكلمة 2 (وهي تنسحب) : على حالهم! على حالهم!

متكلمة 3 : ماذا نفعل بالإطار الفارغ؟

صوت (في العتمة) : متكلمون بالتساوي... هذه إشارة أولى.

متكلم 2 (مرتداً إلى الخلف) : من يكون؟

متكلم 1 : لعله يعمل في المستودع.

متكلم 2 : لعله عامل تنظيفات.

متكلمة 3 : كلنا عمال تنظيفات...

متكلمة 1 (مقاطعة) : ... لإعداد منظر...

متكلمة 3 (مقاطعة) : ... لإعداد جملة.

(متكلم 1 يشد ساعد المتكلم 3، ويتهامسان فيما يخرجان من الحلقة).

(عتمة).

صوت (في العتمة) : إطار الصورة شاغر.

صوت آخر (في العتمة) : لا، إطار الصورة فاغر.

صوت ثالث (في العتمة): لا، إطار الصورة شاعر.

(تضاء الفسحة إذ يدخل إليها متكلمون ومتكلمات، كما لو أنهم يبحثون عن مصدر الأصوات... ثم يخرجون خائبين).

(عتمة).

(عتمة ما خلا البقعة التي تَظهر فيها شاشة إلكترونية، تتوالى فوق صفحتها المضيئة الجمل التالية):

أيجوز أن تستقل القصيدةُ القطارَ بعد صفّارته الثالثة؟

أيجوز أن تُمسك الجملة عن الطيران لكي تتمهل في مشيها وراء طابور نحل... لكي تعاين ما يقع بين الغبار وحافته، بين الصوت والمتكلم؟

أيجوز أن تستعير الحروف عكازات ومسامير وفسحات لكي تستقيم خطواتها صوب الشرفة، صوب اللقاء؟

أيجوز أن تستعير الكلمات حركات وأفعالاً وتعبيرات وجه لكي تزدهي في حلتها قبل احتفالات؟

أيجوز أن تَظهر كلماتي من دون هيئتي؟ وصفحتي المرئية من دون أصابعي؟

أيجوز تدبير المواعيد في العلن لمن كان يرود في العتمة؟

أيجوز، أيجوز، أيجوز... فيما تستوي الجمل مثل منصة كلام، مثل

تدافع أرجل ورؤوس بين ضيق وخيبة؟

بلى، يجوز لي ما لا يجوز لغيري. بضربة من إصبعي، أنهي جوقاً عن الإنشاد، أو أطلقه فوق منحدرات الوحشة...

(متكلمون ومتكلمات يَظهرون تباعاً في عتمة خفيفة، فتختفي الشاشة الإلكترونية، وينسحبون خائبين).

(عتمة).

(مقعد جلدي يصلح لثلاثة جالسين، من دون مساند جانبية ولا خلفية: متكلم ومتكلمة جالسان وينظران إلى البقعة الخالية):

متكلمة 1 : هذا يذكرني بما يفعله البعض في المتاحف...

متكلم 1 : عمَّ تتحدثين؟

متكلمة 1 : في المتاحف مقاعد جلدية مثل هذه، يجلس عليها الزوار المسنُّون طلباً للاستراحة، أو غيرهم للتأمل المزيد في لوحة.

متكلم 1 : **(بعد تردد)** قولي لي: لماذا يختار مخرجون وروائيون عديدون هذه المتاحف، وهذه المقاعد، لكي يجمعوا بين شخصيات تخطط لعملية قتل؟

متكلم 1 : ألا يكون مثيراً الجمع بين الموت والفن؟

متكلمة 1 : أهذا ما يجمعنا؟

(عتمة).

متكلمة 3 (واقفة أمام البقعة الشاغرة، ممسكة بممسحة تنظيف): لحسن الحظ لم يؤنبني أحد... لم يؤنبني بعد! ما كنت أنظفه كل يوم من الغبار طار من مكانه، وما بقي على الحائط كشفَ الوسخ الراسخ.

(وهي تخفض رأسها)هذا ما لم أكن أحسن الانتباه إليه.

(وهي تنسحب إلى العتمة)يبدو أن ما كانت تجلوه الصورة لم يبدد ما كان يتراكم حولها.

متكلم 1 (داخلاً، رافعاً عصا التهديد) : إطار الصورة لم يذهب معها: بقي في الجدار.

متكلم 2 (داخلاً، رافعاً معولاً ورفشاً) : لو نحطم الجدار... لو نبني جداراً جديداً.

متكلم 1 : ألن نحتاج حينها إلى صورة أخرى؟

متكلمة 3 (تعود من جديد، ممسكة بممسحة تنظيف، وترفعها مثل علم تُلوِّح به، ثم تقفل عائدة إلى العتمة).

(عتمة).

(أحدهم يركض عابراً الفسحة المضاءة، والتي تخلو له وحده).

صوت (في العتمة): له الصدى والمدى.

صوت (في العتمة): له الهواء والهباء.

صوت (في العتمة): علقتُ لوحةً، علقتُ معطفاً...

علقتُ، أي: تركتُ لغيري، وخلفي...

علقتُ، أي تخليتُ عما كان لي...

علقتُ، أي: خسرتُ برضاي.

(عتمة).

متكلم 1 (متحدثًا أمام البقعة مع إحدى المتكلمات): أتلاحظين أن البقعة خالية، بيضاء، نظيفة، فيما يحيط بها الوسخ؟

متكلمة 1 (تقترب بأنفها من البقعة، وتبتعد): ... فضلاً عن العفونة.

متكلم 1: مثلنا تماماً. أما كنا نحيط بها فيما سبق؟

(يمسك بذراعها ويخرجان سوياً صوب العتمة).

متكلم 1 (يتقدم من أحدهم، المطأطىء الرأس): ما لك؟

متكلم 2 (يرفع رأسه، فإذا به يبكي).

متكلم 1 : ما لك؟

متكلم 2 : أبكي.

متكلم 1 : لماذا؟

متكلم 2 : كنت أبكي سابقاً في صمتي، أما الآن فأبكي علناً.

متكلم 1 : أهو الفارق؟

متكلم 2 : يمكنك أن تقيس على هذه الحالة، إن شئتَ أن تفهم.... أنا يعنيني أن أبكي ليس إلا.

(عتمة).

(متكلمان متقابلان على كرسيين).

متكلم 3 : لا يكفي نزع الصورة... لا يكفي تبديل العلم... لا يكفي استعمال الكلام نفسه في وجهات جديدة...

متكلم 2 (ينظر إليه بشيء من الدهشة من دون أن يشارك في الحوار).

متكلم 3 : جمعتُ صورهم واحداً واحداً في غرفتي. علقتهم على الحائط بدبابيس، كما يفعل محققو الشرطة في الأفلام، في مكاتبهم، لتعقب المجرمين... وكلما قتلوا أو اعتقلوا أحدهم شطبوه بالقلم.

متكلم 2 : هل قتلت أحدهم؟

متكلم 3 : هذا ما باشرتُ به؛ شطبت أكثر من واحد منهم، اسماً اسماً، كلمة بعد كلمة.

(عتمة)

(متكلمان يمشيان في اتجاهين مختلفين).

متكلم 2 : أتعرف؟ الحفيد يصنع الجد.

متكلم 1 (يستمر في المشي).

متكلم 2 : أتعرف؟ المتفرج يصنع الصورة.

متكلم 1 (يستمر في المشي).

متكلم 2 : أتعرف؟ الخطوة تصنع الحذاء.

متكلم 1 : أتعرف؟ إذ أمشي، أخط سطراً. إذ أتسرى في الهواء، أفتح غيمة ذات دفتين، وأقلِّبُ وردة من صفحات مطوية...

أتعرف؟ إذ أمشي، لا أفكر إلا في الطيران.

(عتمة).

متكلم 1 (يخاطب أحدهم من دون أن يكون ظاهراً) : أتعرف؟ أنت تجعلني في موضع الحمَّال، الذي حمَّلَه أحدهم الكثير، من دون أن يسأله عن طاقته على الحملان، ولما وقع أرضاً، سأله: ما جرى؟ فأجابه:

لا يهم الآن، حمِّلني... لا تكترث للأمر... من قال لك بأنني سأنهض؟

متكلمة (تنزع حجابها ما أن تجلس على كرسيها، وتخاطب أحدهم من دون أن يكون ظاهراً) : هذا كلُّ ما نجحتَ فيه: أن تستقوي عليَّ!

(عتمة).

متكلم 1 : أتعرِفُ؟ وعدتُ نفسي بكثير من الآمال... (متوقفاً).

متكلم 2 : والآن؟

متكلم 1 : أتمنى النجاة بنفسي.

متكلم 2 : والآمال؟

متكلم 1 : تركتُها لغيري.

(عتمة).

(أحدهم يركض عابراً الفسحة المضاءة، والتي تخلو له وحده).

متكلم 1 : وأخيراً: لقد انتهيتُ إلى فهم ما يجري!

متكلم 2 : لا، لقد استيقظتَ من كابوس... وها أنت تتحسسُ ما أصابك.

متكلم 1 : وهذه الفرحة التي تغمرني؟

متكلم 2 : حبة زيتون فوق مائدة فارغة.

(عتمة).

(الفسحة معتمة تماماً، في البقعة الخالية صور تلفزيونية متتابعة عن مشاهد احتفالات وتظاهرات تَظهر مشاركات الحشود فيها).

صوت (في العتمة) : أهم أنفسهم؟... لعلهم أنفسهم.

صوت آخر (في العتمة) : لعلهم غيرهم، ولكن بالطريقة نفسها.

صوت ثالث (في العتمة) : ما يزعجك في الأمر؟

صوت رابع (في العتمة) : الشهيد يقود التظاهرة.

صوت خامس (في العتمة) : الشهيد بدل عن ضائع...

صوت سادس (في العتمة، مقاطعاً) : ... لا، عن موجود.

(عتمة).

(متكلمون ومتكلمات أمام البقعة المضاءة وحدها).

متكلم 1 : لا يجوز أن تبقى شاغرة.

متكلم 2 : هي صفحة بيضاء...

متكلمة 1 (مقاطعة) : لا، شاشة عرض...

متكلمة 2 (مقاطعة) : لا، جدار شعارات...

متكلم 3 (مقاطعاً) : لا، فسحة انتظار...

متكلمة 3 (مقاطعة) : لا، هي ما نفعله بها، ولنا.

(عتمة).

(متكلمان على كرسيين متقابلين) :

متكلم 1 : لم نجد حلاً بعد؛ وأصابني الملل.

متكلم 2 : هو أكثر من ملل: ألمٌ وخيبة.

(متكلم ثالث يأتي بكرسيه ويتوسطهما) : نزعنا الصورة، ووجدنا الفراغ المحيط بها.

متكلم 1 (مقاطعاً) : لا، لقد وجدنا الفراغ الذي انبنت عليه.

ألن تضجرا إن أخبرتكما بما حصل لي عند زيارة أهرامات الجيزة؟

(يأتي متكلم ومتكلمة بكرسيين، ويتابعان ما يجري. ينتظر المتكلم 1 إجابة من دون أن تأتي. يتابع) :

أخبرنا الدليل، بعد الدخول إلى جوف الهرم الكبير، عن وجود تابوت الفرعون في العالي...

(يأتي متكلم ومتكلمة بكرسيين، ويتابعان ما يجري).

لم نتردد في التوجه صوب التابوت، لا أنا ولا مجموعة من السياح، فيما اتجه غيرنا صوب رسوم حائطية. وجدتني أرتقي فوق درجات سلم معدني، سلمٍّ موضوع لهذه الغاية. كانت الدعسات ضيقة، ولا تسع الواحدة منها غير صاعد واحد، فيما كنا نتشوف إلى رؤية الفرعون الذي كان يقع تابوته في منتهى السلم، على ما كنا نخمن. طال صعودنا، كما زادت الدعسات، على ما قال جاري الذي أمامي لصديقه الذي يصعد خلفي. وإذا بركبتيَّ تؤلمانني، ولا أقوى – لو شئتُ – العودة إلى الخلف... كفاني أنني نظرت إلى خلف، وإذا بنظرات تزجرني كما لو كنت أعيق تقدمها، أو أؤخر وصولها.

عند وصولي، تنفستُ الصعداء، وقد بلغت مع الواصلين فسحة تسع لأكثر من عشرين شخصاً، وأسرعتُ بعد جاري إلى التابوت. ألقيت نظري على داخل التابوت المفتوح مثل من يرجو رؤية وجه نفرتيتي نفسها، أو أنجيلينا جولي، وجهاً لوجه، وإذا بي أجد التابوت فارغاً إلا من عتمة فراغه.

متكلمة 1 : فراغ مثل هذا (وهي تدل إلى البقعة الفارغة أمامهم)؟

متكلمة 3 : لعله رمى إلى أكثر من ذلك، وهو أن السياسة هي الفراغ...

متكلم 2 (مقاطعاً) : ... البكاء صامتين في الزنزانات... حتى الموتى ما كان يَحق لنا البكاء عليهم إلا في الصمت! ما كنا نأمل حتى بزيارة

مقابرهم، عدا أنهم قبروا في مقابر جماعية أو خفية.

الفراغ ربما، أي من دوننا!

متكلم 1 : أتحدث عن فراغ آخر... عن التوهم بوجود قوة.

متكلم 3 : أهي الهيبة؟

متكلم 2 : هي خوفنا منه... الهيبة هي سحره البادي في عيوننا.

متكلم 3 : سبق أن قرأتُ عن الخنجر الذي يرهب الناس، من دون أن نرى لا مقبضه، ولا نصله.

متكلم 2 : أهو لمعان الخفي؟

متكلم 3 : أهو لمعان بسمة عبلة فوق سيف عنترة في العراك؟

متكلم 1 (**رافعاً اليدين إلى أعلى في نوع من التذمر**) : أوه! أوه! كنت أود التخفيف عنكم، ليس إلا.

(ينسحب المتكلمون مع كراسيهم، فيما يقف المتكلم 1 متسائلاً بحركاته عما حصل له معهم).

(عتمة).

(أحدهم يركض عابراً الفسحة المضاءة، فيما يراقبه متكلمان واقفان على مبعدة منه).

متكلم 1 : أراه للمرة الثالثة في أقل من لحظة. أتعرف من هو؟ أتعرف ماذا يريد؟

متكلم 2 : لعله يتمرن...

متكلم 1 (لا يجيب).

متكلم 2 : لعله يهرب من... لعله يتعقب أحدهم...

متكلم 1 (لا يجيب).

متكلم 2 : لعله يبحث عن ملجإ... عن طائرة... عن مصور "بث مباشر"...

(ينتظر إجابة لا تأتي) : قلْ لي. ماذا جرى؟ أنتَ سألتني عنه! ماذا جرى!؟

متكلم 1 : يكفيني السؤال.

متكلم 2 : كيف ذلك؟

متكلم 1 : ألا ترى أن الفسحة متاحة لأكثر من عابر سبيل؟

متكلم 2 : فعلاً. لكن ألم تقرأ مثلي على الشاشة الإلكترونية أن الجمل تحتاج إلى التجول بدورها؟

متكلم 1 : لا، لم أقرأ. ماذا قرأتَ أيضاً؟

متكلم 2 : قرأتُ أن الداخل لا يعرف طرقاً متعرجة ولا معبدة للوصول إلى القصيدة... لها نوافذ وحسب، قد يحتاج الداخل إليها إلى فتحها.

متكلم 1 : هل تعرف؟ أنت لا تكتفي بالأسئلة، كما قلتَ.

متكلم 2 : أحياناً.

متكلم 1 : كيف ذلك؟

متكلم 2 : أنا مثله أعدو... فالكلام لا يصل بل يسير؛ لا يتقدم، بل يميل...

متكلم 1 : سبق أن قرأتُ هذا.

متكلم 2 : ها أنت تعترف بأنك قارىء، ولك ذاكرة.

متكلم 1 : يحلو لي أن أعيش في كتاب: أكثر حرية ومتعة وطمأنينة.

متكلم 2 : لكنها عابرة... ما تفعل إذ تنقضي اللحظة هذه؟

متكلم 1 : أعود إلى كتاب آخر... في انتظار أن أمشي من دون عيون مذعورة من جاري قبل البعيد عني.

(عتمة).

(متكلمون أمام البقعة المضاءة وحدها).

متكلمة 1 : وجدتُ حلاً.

(المتكلمون الآخرون ينظرون إليها واجمين).

متكلمة 1 (متذمرة) : لم أقلْ بعدُ شيئاً.

(المتكلمون الآخرون واجمون).

متكلمة 1 : لندعْها بيضاء... خالية... مثل أمل مفتوح... مثل شرفة.

(عتمة).

(الفسحة مضاءة بالكامل. أحدهم يجر ولداً حاملاً شنطة مدرسية على ظهره، وأخرى تسوي حجابها وتتعجل في وضع أحمر شفاهها، وثالث يراقص حاسوبه على أنغام "تانغو"، ورابع ينتقل مع نارجيلته وينفث دخانها بمتعة بادية...).

صوت (في العتمة): ما أطلقوا عليه: "الربيع" بدأ في الشتاء واقعاً.

(يختفون على عجل، في اتجاهات مختلفة).

صوت (في العتمة): مرة ثانية، أتكفل وحدي بما يقال، وما لا يقال، بما يظهر في الشارع، وما لا يظهر خصوصاً...

متكلم 3 (يتعقب ما لا يجده في الفسحة المضاءة): لعله تسجيل قديم.

صوت (في العتمة): مرة ثانية، ينفرد صوتي مثل نبتة تشرئب وحدها من صقيعها، مع أنني لست مواطناً، ولا متفرجاً. أنا صوت وحسب... صوت منفرد. صوت ضاج وصامت في الوقت عينه.

(عتمة).

(متكلمان يمشيان في اتجاهين مختلفين).

متكلم 1 : أتعرف؟ ما نقول، هو واقعاً ما نستعيد قوله.

متكلم 2 (يستمر في المشي).

متكلم 1 : أتعرف؟ حين نتحاور: نتحابُّ أو نتنابذ.

متكلم 2 (يستمر في المشي).

متكلم 1 : أتعرف، القارىء هو الذي يصنع الكتاب؟

أتعرف، إذ يتهالك الكاتب ينام في الكتاب؟

(عتمة).

(أحدهم يركض عابراً الفسحة المضاءة، فيما يراقبه متكلم ومتكلمة واقفان على مبعدة منه).

متكلمة 2 : رأيته للتو...

متكلم 2: رأيتِ غيره.

متكلمة 2 : لا، لا. هو، هو.

متكلم 2 : حتى حين نرى قد لا نعرف ماذا يجري.

متكلمة 2 : لكنه قال لنا بأنه يحتاج إلى الصورة لكي يعوض عما لا تقوله الكلمات.

متكلم 2 : أتصدقين فعلاً ما يقوله لنا؟

متكلمة 2 (تنسحب إلى العتمة).

متكلم 2 (وهو يلحق بها) : إنه يلعب. إنه يلعب...

يتظاهر بأن له عكازين، فيما يعدو، ويعدو، ويعدو...

(عتمة).

(عتمة ما خلا البقعة، التي تَظهر فيها شاشة إلكترونية، تتوالى فوق صفحتها المضيئة الجمل التالية) :

لا يسع القصيدة السكوت.

لا يسع القصيدة الصراخ، طالما أن بكاء الصابرة يبقى أشد بلاغة من الخنساء.

صوت (في العتمة): ألهذا استعانت القصيدة بوجوههم وحركاتهم؟

(فوق الشاشة) الدمعة تنقضي، لكن ندى الألفاظ لا يجف.

القصيدة – كما المدفأة المشتعلة – تنتظر من يرمي فيها الحطب لكي تبقى منيرة، مثل دمعة سقطت للتو فوق خد قارئة.

(عتمة).

(متكلمون ومتكلمات أمام البقعة الخالية، المنارة وحدها):

متكلم 1 : ما العمل؟

متكلمة 1 : لماذا لا نقف أمام المصوِّر لالتقاط صورة لنا؟

متكلم 2 : وماذا نفعل بالإطار؟

متكلمة 2 (منصرفة) : تغيرَ كل شيء: تغير الإطار؛ تغيرت الصورة.

متكلم 3 (منصرفاً) : المهم أن نرى بشكل مختلف.

متكلمة 3 : أياً كان الأمر، لن أعود إلى ما كنتُ عليه.

متكلم 1 (منصرفاً) : لماذا أنتِ متفائلة إلى هذا الحد؟

متكلمة 3 (منصرفة) : لا، أنا مصممة فقط.

متكلم 2 (منصرفاً) : يجب أن نخرج من الجدار.

متكلمة 1 (منصرفة) : أنا تركتُها فارغة لغيري...

متكلم 2 (مقاطِعة، وهي تنصرف) : ... في عهدة الغائب.

(عتمة).

(المتكلمون والمتكلمات يظهرون تباعاً: يحمل كل واحد منهم إطاراً خشبياً، ولا يلبث، حين يصل إلى وسط الفسحة، أن يضعه حول وجهه مثل إطار له، ثم يخلي المكان لغيره، في حركة استعراضية وختامية).

(عتمة تامة).

غريبان في عتمة البهجة

أكتب إذ أحب.

أحب إذ أكتب.

هي الرغبة عينها التي تدفعني، التي تحملني، فيما أظنني أسبقها.

هي عينها، كما فوق سكتَي قطار، أو مثل لقاء شفتين في تمام الجملة، في تمام القبلة.

أكتب فأدفع عني الموت. وأدفع عني الموت فأحب.

هو مداي الحيوي، ما ينقلني وينشرني في ما يستقبلني، في غيمة حانية، في غيمة عامرة بمطر النعمة، على أنه ينبوعٍ جارٍ بين شقوق الجسد.

هو الوله عينه، أجده هنا وهناك: ناري التي تُعلنني في ليل الفقدان، ناري التي تكشف وتبني فسحة للقاء الحبيبة.

هناك من يرى إلى ورقة الكتابة، بل ينظر إلى شاشتها الإلكترونية، مثل مرآة تحلو لإبراز صورة نرجسية، في نسخة منقحة عن "أعيان الأدب". فيما أقبِل عليها إقبالي في مدى الرغبة، أي في العتمة: عتمة ما يخفيني عن نفسي. هذا ما يجلوني، على أنني مختلف حكماً، بين ما كنت عليه وانتهيت إليه.

أقبِل بالاندفاعة عينها التي تتقدمني، وتقيمني في فضاء مفتوح، ولكن أكيد. هو فضاء التجلي، فضاء التحقق، بما يجعلنا مشروعاً ممكناً لأنفسنا.

أكتب هذا، وقد تيقنتُ منذ زمن بعيد من صلة الكتابة بالرغبة، حيث إنها ما يحدد صلتي بها، طالما أنني لم أطلب شيئاً من الكتابة غير قيامها نفسه، غير متعتها نفسها. و لم يفارقني ما كتبتُه، في بدايات ما كتبتُ، وهو أن الكتابة "قابلية جسدية". ذلك أن كتابة القصيدة تستحضر وتستنفر كلية الجسد، ما أعيشه يومياً من دون أن أقوى عليه بالضرورة، مثل من يفتقد

القدرة على رفع كيان القصيدة بما يليق بها في ألق فتوتها.

كم يحدث لي أن أعجز بل أمتنع عن مجرد الاقتراب من حاسوبي، مدركاً سلفاً بأنني لن أقوى على رفع حرف واحد، فكيف على قلب اللغة وإخراجها مما اعتادت عليه! وكم يحدث لي أن أعود إلى الشعر، بعد غياب في البحوث، فأجدني مثل عاشق مبعد، يفيض توقاً وحضوراً، أكثر مما تحتاجه القصيدة نفسها!

وهو ما ليس ممكناً إن لم تَطلب الكتابة انتهاج سبل غير معهودة، مجددة، وإن لم يتم تعريض القصيدة لهواء النزوات والاندفاعات السرية. وهو ما أتحقق منه، قبل القارىء، إذ أدخل إلى القصيدة بعد وقت على كتابتها مثل مجهول، مثل غريب في بيته، طالما أن لقائي بها لم يحصل بعد موعد، وإنما في مصادفة معتمة وفجائية.

لهذا أكتب إذ أحب... هذا ما لا أعمد إليه، ولا أقصده، وإنما يحدث لي بنوع من التواصل الحميمي، ليس لحفظ ما جرى، وإنما إلى استكماله فوق ألواح أخرى.

لهذا أحب إذ أكتب، إذ أنني أتحقق فوق سطور القصيدة من الشوق الذي يعنيني إبلاغه إلى غيري، إلى قارىء يخرج من العتمة بدوره.

وهو اللقاء الكاشف لإنسانيتنا الحميمة والغامضة، لا لقاء الأعيان في مجلس، أو انتظار البعض لشاعر فوق منصة. لقاء من يجدد اللغة إذ يستعملها، لا من يكتفي بأن تستعمله اللغة، في نماذجها وصيغها المستقرة، فيما يظن أنه يكتبها. وهو لقاء الكتابة بالحياة: حياة الجسد، وحياة اللغة، ولغة الجسد، وجسد اللغة. هذا ما يعرفه الطفل إذ يظن أنه يصنع العالم والبيت والعائلة في لعبه اللاهية، وهو ما لا ينفك عنه الشاعر في لهوه الجسيم.

***

أطرق على بوابة القصيدة مثل ضائع في متاهة، مثل طالب نجاة. ذلك أن اللجوء إليها يعفيني من متابعة ما أنا عليه، مما أعايشه، مما أتذمر منه، مما يعدني بالوصول ولا يصل، مما أرجوه ويبقى مرجئاً أو معلقاً... بينما تنتظرني الاستعارة بكل ممكناتها، كما لو أن لها محرك تحليق تتعدى طاقته أسرع الطائرات، ولها

حياة حيوية تتجنب بالتالي البطء والكسل والبلادة المقيمة.

هذه الحياة الأخرى، أو الثانية، أو البهية، قد تكون للبعض حياة وهمية، متخيلة في أحسن الأحوال، فيما لا أشاركه الرأي. وقد تكون للبعض الآخر تخلصاً مما يجري، أو تلطياً مما لا يمكن تحمله، بينما لا أنظر إلى الأمر وفق هذا المنظور.

ما يستوقفني في هذه الآراء وغيرها هو أنها تتعامل مع القصيدة مثل بدل عن ضائع، فيجدون فيها تعويضاً عما يقع خارجها، بينما أنظر إليها مثل فعل مكتمل الوجود: فعل يكتفي بوجوده نفسه، مثل راشد لا يحتاج إلى مساعد، أو وصي، أو عين مراقبة.

ذلك أنهم عاشوا، ولا يزالون يعيشون – بحكم العادة – في كون اجتماعي مضى، في اعتقادات مكرورة، عاشت فيها القصيدة تابعة، ملحقة، كما لو أنها خادمة، لا سيدة. يكفي لذلك أن يعود القارىء إلى الشعر حتى العقود الأولى من القرن العشرين سيجد بأنه شعر مسبوق، يؤدي أدواراً محفوظة، فلا يوجد نوع شعري يخص الشاعر نفسه، بل غيره. هذا ما تختصره فكرة "التكسب" طبعاً إلا أنه يتعداها ليشمل عقداً

خفياً ولكن متيناً بين الشاعر والجماعة، بدليل أن أحدهم في البصرة أتى بشاعر – كما يرد خبر ذلك في "الأغاني" – لكي يرى عياناً جمال زوجته، و"يحدِّث بما رأى".

هذا العقد القديم متين فعلاً بدليل تحوله، أو تكيفه، مع تغيرات المجتمع المعاصر. فخرجت القصيدة من البلاط والمجلس والحلقات إلى الجمعية والحفل والأمسية بما يستدعي الجمع والتجمع وقضايا الجماعة نفسها، ولم يَظهر بالتالي إمكانُ تكفل الشاعر بقصيدته تكفلاً فردياً خالصاً. ذلك أننا بتنا نتعرف على وجه جديد في المشهد، هو من يُقبل على شراء الجريدة، أو المجموعة الشعرية، في مكان لم يكن معروفاً، هو المكتبة، ويُقبل على مطالعتها وحده، حيث يشاء، وكيفما يشاء، وفقاً لمواعيده هو، وهو: القارىء. إلا أن وجوده قليل، ضعيف، ويعامل الكتاب بأصابع "مسبوقة" (مثلما كتبت في قصيدة) وفق اعتيادات موروثة في الغالب.

الشعر خرج من الدورة القديمة، لكن العلاقة المستجدة بين الشاعر والقارىء لم تستقم بعدُ وفق شروط الدورة الجديدة: لا يزال البعض ينتظر من الشاعر أن يكون صوتاً أو لساناً باسمه،

كما لا يزال بعض الشعراء يتمسكون بهذه المكانة الرمزية، أي أن يكون الشاعر: مفرداً بصيغة الجمع. هذه العلاقة لا توافق مقتضيات الدورة الناشئة، حيث للقارىء أن "يختار" في ما هو معروض له من إصدارات، وللشاعر أن "يختار" ما له أن يكتب بحرية سيدة. أما عن لقاء القارىء بشاعره فهو موعد إنساني، فردي، لا اجتماعي أو جماعي بأي حال، ينشأ عن علاقة حرة من الطرفين.

هكذا أُقبل على القصيدة مثل فعل وجودي كامل وناجز، وأقيم فيها مثل كيان وجودي دافىء وبهيج: هكذا أكون، وبهذه الكيفية، على أن القارىء ضيف عزيز – إن رغب –، في شراكة حوارية ممتعة وحيوية.

حصل لي، البارحة، فوق شبكات الأنترنت ما يحصل لي أحياناً، في مكتبة: أشتري كتاباً غير الذي كنت أبحث عنه. كنت أبحث عن كتب ودراسات في ميدان خاص بالقرن التاسع عشر، وإذا بي أجد دراسة، في العام 2007، للدارسة فانيسا فان رنترغم، تتحدث عن كاتب بغدادي في القرن

الخامس الهجري، جدير بأن يكون من كتاب اليوم.

تنطلق الدراسة مما كشف عنه الباحث جورج مقدسي وحققه ونشره في العام 1990، في لندن، وهو مخطوط كتبه القاضي أبو علي ابن البنا، يوماً إثر يوم، وسجل فيه الوقائع التي عايشها أو تعرف عليها، أو بلغته من شهود ومسافرين وغيرهم. الوثيقة نادرة، وإن في صفحات قليلة بقيت من المخطوط الأصلي، وتختلف عن طريقة الإخباريين القدامى.

ما يستوقف في هذه الوثيقة هو الصيغة التي يعتمد عليها القاضي لمباشرة الكتابة، إذ يقول في غير موضع: "شاهدتُ"، و"رأيتُ"، و"بلغني أن..."، و"ذُكر أن..." وغيرها الكثير، مما يقيم علاقة مفاجئة، مختلفة، بين الكاتب وموضوعه. وهي علاقة تتعين خارج البلاط، وخارج مجالس العلماء وغيرها من أطر تناقل المعرفة والآداب في العصور القديمة. وهو ما يثيرني، اليوم، إذ إن موقف البغدادي من الكتابة قد لا أجده عند كاتب عربي معاصر. فكيف ذلك؟

فلو عدنا إلى كتابات عربية حالية عديدة لوجدنا أن الكاتب فيها لا يختلي بورقة الكتابة، وإنما يقف فوقها مثل خطيب فوق

منبر، أو في تظاهرة. وهي وقفة الداعية، أو "الأمين العام"، أو المبشر، أو أحد "أعيان" الأدب، وغيرهم ممن طلبوا مكانات اجتماعية من الأدب، قبل الأدب نفسه. وهو ما قام به كتاب عرب عديدون، بين نهايات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين، حيث خرجوا من بلاط السلطان والأمير ومن التكسب والمنادمة إلى منابر المجتمع، إلى النوادي والملتقيات والاجتماعات والمناسبات، ومنها وعبرها إلى الصحف الناشئة. يكفي أن نعود إلى دواوين بعض الشعراء البارزين لكي نتحقق من أن قصائدهم قيلت في "مناسبات"، وتطلع فيها الشاعر إلى أن يكون "لساناً" ناطقاً باسم غيره، "في خدمة" قضايا ومواقف وظروف بعينها. هذا ما أقع عليه في دواوين: حافظ ابراهيم، وخليل مطران، ومعروف الرصافي وغيرهم، فلا أجد فيها ما يربطني بالكتابة، وباحتياجاتي منها.

ذلك أنني إذ أختلي بالورقة – الإلكترونية – لا أرى وجوهاً تنتظرني أو أتطلع إلى وجودها أمامي مثل صفوف في حشد أو قاعة، طالباً التصدر أكثر من التعبير. وإنما أنصرف إلى ما يقلقني، أو يبهجني، أو يشغلني، فأكتب – بمعنى من المعاني

– مثل الكاتب البغدادي القديم، وأعيش في الكتابة ما قالته العبارة اللاتينية القديمة: "هنا، والآن".

ما أكتبه هو ما أعايشه في الكتابة وخارجها، وهو لا يعني النظر إلى الورقة مثل مرآة، وإنما مثل من يخاطب نفسه في عتمة نفسه، في سره، في قاعة هواجسه ومباهجه وشواغله. ولا أكون في ذلك أتبجح، أو أدعي، أو "أُلمِع صورتي" (مثلما يُقال في لغة الإعلام والترويج)، وإنما أطلب الكتابة نفسها، ولنفسها، إذا جاز القول، أي ما تقوى عليه من تجديد للمعنى والتعبير والشكل، وبما يحمل نَفَسي في الحياة. وهو ما يحمل الحروف فوق أجنحة الرغبة والتواصل والشراكة.

***

أقضي وقتاً طويلاً أمام التلفزيون، أمام شاشاته المختلفة، عملاً ربما بما قاله مفكر فرنسي راحل، ريمون آرون، عندما كتب عن "المتفرج الملتزم"، أي غير المنفصل عما يجري في مجتمعه من قضايا ونزاعات. إلا أنني لم أنزل بعد إلى الشارع مثل ملايين مجتمعين ومختلفين في ساحات عربية وغربية عديدة. وهو ما كنت لا أتاخر عنه لما كنت فوق مقاعد الدراسة الثانوية

والجامعية، سواء في لبنان أو في فرنسا...

قد لا يكون موقفي مختلفاً عما فعله أحد "المتكلمين" في أحد كتبي الشعرية الأخيرة، "ترانزيت" (2009)، حيث قرر، بعد انقضاء احتجازه مع مجموعة من المسافرين–المتكلمين في صالة "ترانزيت" في مطار، البقاء في العتمة، بدل الخروج إلى الضوء من جديد، أي إلى الشارع. وهو امتناع لا يصدر عن خوف، أو عن عشرة متمادية مع النقمة المختزنة، وإنما يصدر عن ولع مزيد بالتخيل، بما تتيحه من حياة أخرى، غير الحياة المتاحة.

ذلك أن الشاعر إذا كان، كمواطن، يتأثر وينفعل ويندرج مع غيره من "الناقمين" في النزاعات، فإنه كشاعر نزل إلى شوارع القصيدة منذ وقت، ولم ينتظر قاعداً في العتمة، في الكبت. هذا ما تتيحه القصيدة، وإن لم تكن كذلك لشعراء طلبوا منها أن تكون صدى أو حفظاً أو تزخيماً للحظة خارجية. ذلك أنني لطالما نظرت إلى القصيدة مثل فضاء قائم بنفسه، وليست غرفة خلفية أو مستودعاً لما يجري خارجها. هذا لا يعني أن القصيدة لا تتعرف، أو لا تتفاعل، مع ما يجري في السجون، أو لا تتنبه إلى امتناع المتكلمين عن الكلام، أو عن الحراك،

"غير المأذون" من "صاحب الدولة"، وإنما يعني أن القصيدة تعيش زمنها عميقاً، لكنها تعيشه في مبانيها الخصوصية، أي في الأشكال التي تختارها وتعقد فيها نزاعاتها، في دروبها وشوارعها وسبل الخروج منها.

هذا لا يعني أن القصيدة تتشاوف، أو تتكبر، أو تتعالى، أو تنأى بنفسها عما يجري، وإنما يعني أنها تقوم بواجبها كما يمليه عليها موقفها من الشعر، ومن الإنسان. ذلك أن ما أطلعُ عليه من قصائد "نضالية"، أو من روايات "ثورية"، تجدد وهماً سابقاً في الكتابة العربية، وشعوراً بالإثم أو بضعف الالتزام من قبل كتاب عرب.

ما تقوله الشعارات، اليوم، هو ما توانت كتابات عربية عديدة عن قوله، صراحة أو مداورة. وما لم يجعل هذه الكتابات فاعلة أو مؤثرة في بيئاتها، أو في سلوكات أهلها، أو في تغيير الأوضاع، لا يتأتى من "ضعف" التزام الكتاب أنفسهم بالضرورة، أو من "مسايرتهم" – القائمة في بعض الأحوال – للحكام، وإنما يتأتى من مصاعب قيام شروط الكتابة نفسها، في المجتمع، في البيت، في المدرسة، في الفرد. هكذا نعيش

في الشائعة، لا في الخبر، ولا نجد القارىء بل المستمع، ونكتفي بالشعار بدل فحص المعنى... هكذا لا تعيش الكتابة حياتها، ولا يعيش القارىء فيها ومعها.

لهذا لا يجد القارىء العربي كتاباً يفسر أو يمهد لما حدث ويحدث، هنا وهناك، في المدن والقرى العربية، بينما يجد القارىء الغربي كتباً عديدة ومنتديات ونقاشات متكاثرة تفسر له وتشرح أسباب "النقمة" التي تتصاعد في شوارع نيويورك وباريس ومدريد ولندن وغيرها، في وجه اختلالات العولمة المتمادية.

ما نعايشه، بعد عهود الصمت والعتمة، يتعين في الصراخ، و لم يبلغْ بعد وطنَ الكتابة.

***

هذا ما يمكن أن تطلع عليه إن طلبتَ البحث عن مواد صحفية تخصني في المشغِّل الإلكتروني "غوغل": "تعرضَ الشاب شربل داغر إلى عملية خطف واعتداء وسرقة على طريق (...). وفي تفاصيل الحادثة أن شربل داغر، وبعد انتهاء

دوام عمله (...)، استقلّ قرابة الساعة العاشرة والنصف من ليل الخميس سيارة أجرة قرب مبنى (...)، طالبا من سائق السيارة أن يوصله إلى ساحة (...)، في حين أن امرأة كانت تجلس قرب السائق، وشاب يجلس في المقاعد الخلفية. وبعد المرور على إشارة الجامعة (...)، توجهت السيارة يميناً (...). عندها، طلب داغر من السائق تبرير تغيير مساره عن الطريق العام (...)، فقال له السائق إنه ينوي أن يوصل الشاب الآخر معه إلى منطقة (...). فطالب داغر السائق بالتوقف ليأخذ سيارة أجرة أخرى، فما كان من الشاب الجالس بقربه إلا أن ضربه على رأسه بمسدس كان بحوزته، فيما قامت المرأة برفع مسدس آخر بوجهه مهددة، وطالبه الخاطفون بإعطائهم محفظة نقوده. وبعدما أخذ الخاطفون محفظة النقود، انهالوا على شربل بالضرب والشتائم، ورموه على إحدى الطرق الفرعية الداخلية (...) مكملين طريقهم".

هكذا، إذاً، يتم خطفي من دون علمي! وهو ما علمتُ به بعد ساعات على عملية الاختطاف، إذ اتصل بي أكثر من شخص ليتحققوا من حقيقة الخبر. هذا الخبر ورد في أحد كتبي

الشعرية الأخيرة، "ترانزيت"، إذ إن أعداداً من المتكلمين فيه جرى إيقافهم في مطار، في قاعة انتظار. ولو طلب هؤلاء الاستقصاء في الخبر لوجدوا أن كتباً شعرية عديدة، منذ كتابي الشعري الأول "فتات البياض"، تتحدث عن: شربل، أو عن: ش. د.، وغيرها من التسميات. هذا ما قمت به طالباً نقد الاسم العلم، لا الاحتفاء به، عامداً إلى جعل الاسم موضوعاً شعرياً، في نوع من التبعيد بيني وبينه. وهو ما عملت عليه منذ سنوات بعيدة، فما كنت أتخيل أن هذه اللعبة ستستدرجني إليها، فلا أقوى على الفكاك منها.

هكذا أتحقق، بالعودة إلى "غوغل"، من أن خبر قريني (أو بديلي، أو حامل الاسم المشابه لاسمي) يتصدر المواد الأولى التي تخصني... وهذا بعد انقضاء أكثر من شهر على حصول حادثة الاعتداء.

هذا ما أصابني قبل ذلك، منذ سنوات، مع الزميل غسان شربل، رئيس تحرير جريدة "الحياة"، حيث أورد أكثر من موقع إلكتروني استلامي – بدلاً منه – رئاسة التحرير، فضلاً عن نسبة مقابلات صحفية يجريها إلي، وهي مع رجال سياسة

معروفين، ما لم أفعله في حياتي الصحفية أبداً. أيتوجب علي بالتالي أن أنشر تكذيباً، أو أن أورد اسمي العائلي بالكامل لفك الالتباس بيني وبين غيري؟

هذا ما لم أفعله حتى في مجال الرد على أخبار أو تحاليل تخص كتبي، فكيف في فض اشتباك بين الخيالي والواقعي، طالما عولتُ عليه وجعلته مادة اغتذاء لكتابتي. إلا أنني ما كنت لأتخيل أن ينصب لي الواقع نفسه (ووسائل الإعلام معه) فخاخاً... ولكن من دون يصيب رأسي غير اهتزازت القراءة والدهشة حتى تاريخه، فيما تصيب شبهي في الاسم – الحمد لله على سلامتك –، في الواقع كما فوق الصفحة الإلكترونية، أوجاع وجراح فعلية.

***

لعلي أكتب لقارىء لا يعرفني.
لعلي أكتب لقارىء لا يقرأني.
ما يسعدني هو أنني لا أراه، لا أتوقع وجوده.

لعله قابع في عتمة، لكنني لا أراه.

لعله وصل صدفة إلى حيث أرخيت صنارتي.

لعله يتلصص علي فيما أظنني وحدي، لاهياً.

لعله يكتب، أو يعترف، مثل العزيزة وداد بغدادي (الموصل)، بأنه كان عليها أن تقترب مني، أن تحادثني، أن تسألني عما كتبت، عما لن أكتب.

لعله سبقني إلى حيث ينتظرني من دون أن أصل، أو قد أصل إلى ما يقع تحت نظره من دون أن يكون بمتناوله.

لعله أمسك عن الكلام، يراقبني وحسب، ويحتفظ بما يعتمل فيه.

لعله صمت عمداً.

لعلي أغيب من دون أن أغيب.

لعلي أصل من دون أن أرى وقع خطواتي. لعل خطواتي غارقة في تربتها، فلا تُحدث أثراً.

لعله يظن – إن رآني – أنه رآني.

لعله يظن – إن قرأني – أنه رآني.

لعلي أختفي، أنتقل فوق رؤوس الحروف، من دون أن ينتبه لي أحد.

لعل الضجيج الذي أحدثتُه بين حرف وآخر لم يبلغ أحداً غير حروف مجاورة.

لعلي أمضي، حيث قدامي هو أمامي، من دون اعتذار، من دون توقع، من دون انتظار.

لعلي أصرخ فلا يصل صراخي، وأبكي من دون أن يمدني بمنديل.

لعلي أحكي عن صراخ، أو بكاء.

لعلي اختفيت وراء وجه، أو وراء وجهي. لعلي امتنعت عن المجيء مفضلاً البقاء صامتاً، منتظراً حركة غيري: أله أن يبحث عن كتابي، أن يفتقدني، أن يتفقدني هنا أو هناك؟

لعلي ألقاه من دون موعد، أو لمحاً، بين ورقة وأخرى، بين قارىء وآخر، بين ما لا يصل وما يقعد هامداً فوق مقعده.

لعله يشاركني في ما لا أنتظره، ويباغتني في سؤال، ويواعدني حيث لا أنتظر، في ثيابي المهملة أو أصابعي الكسولة.

لعله يفرح إذ يقرأ، أو يعتلي الحروف فوق بالون. لعله يمد يده، أو إصبعه، أو يستلقي من دون أن يميز بين إغفاءة ويقظة.

لعله يصغي، أو يتفقد صندوق بريده الإلكتروني دقيقة تلو دقيقة منتظراً سماع الرنة المنبئة بوصول رسالة جديدة.

لعلي لا أحادثه فعلاً، أتوجه إليه من دون أن أقصده: ممثل فوق خشبة يغفل عن أن جمهوراً يترصده، فيما يخاطب الممثل نفسه مثل غيره على أنه خشبة أصوات، لا الشخص الواحد.

لعله قرأ ما كتبت مثل رسالة خاصة، وبتصرفه.

لعله يلقاني، وألقاه، واهمَين معاً أننا نتحاور فيما نردد حديثَين سبق لكل واحد منهما أن أعده لهذه المناسبة.

لعله يلقاني، وألقاه، مثل عابرَين فوق رصيف قطار: واحد في اتجاه، والآخر في الاتجاه الأخر. واحد خرج من الكتاب، وآخر دخل إليه: غريبان في تدافعات الهواء وملامساته.

(صيف 2012)

مؤلفات الشاعر

شربل داغر،
– من مواليد وطى حوب (لبنان)، أستاذ جامعي وكاتب.

من مؤلفاته:

• **في الشعر:**
– "فتات البياض"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981،
– "رشم"، دار الورد للنشر، بيروت، 2000،
– "تخت شرقي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – عَمان، 2000،
– "حاطب ليل"، دار النهار للنشر، بيروت، 2001،
– "غيري بصفة كوني" (مختارات)، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003،
– "إعراباً لشكل"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – عَمان، 2004،
– "عتمة بالمرصاد" (مختارات بالفرنسية)، دار لارماتان، باريس، 2005،
– "لا تبحث عن معنى لعله يلقاك"، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006،
– "تلدني كلماتي" (مختارات)، دار محمد علي الحامي، صفاقس، 2007،

- "ترانزيت"، دار النهضة العربية، بيروت، 2009،
- "وليمة قمر" (مختارات)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2009،
- "القصيدة لمن يشتهيها"، دار النهضة العربية، بيروت، 2010،
- "على طرف لساني"، دار العين للنشر، القاهرة، 2013،
- "لا يصل الكلام، بل يسير" (مختارات)، "منشورات ميم"، الجزائر، 2013.

• **كتب ومعارض وعروض ابتداءً من شعره:**

- جمال عبد الرحيم: "رشم" (كتاب فني – شعري من 12 محفورة، بالعربية والفرنسية والإنكليزية)، البحرين، 2000،
- محمد فتحي أبو النجا: "شغف" (كتاب فني – شعري مصنوع باليد، بمواد مختلفة)، الاسكندرية، 2001،
- وجدان (الأردن)، وإيتيل عدنان وغادة جمال (لبنان)، وجمال عبد الرحيم (البحرين)، وهناء مال الله (العراق)، ومحمد أبو النجا (مصر) وفيصل السمرة (السعودية): "تواشجات"، المتحف الوطني الأردني للفنون الجميلة، عَمان، 2003،
- سالم اللبان: "عتبات للرحيل... وللوصول أيضاً" (سينوغرافيا شعرية)، تونس، 2006،
- أحمد جاريد: "ما يجمعني بنجمي البعيد" (كتاب من المحفورات الفنية، بالفرنسية والعربية)، الدار البيضاء، 2007،
- "الغبطة بالكلام والمتعة في التصوير"، مع الفنان الأردني محمد العامري (34 عملاً بين لوحة ومحفورة)، عَمان، 2010.

له منتخبات مترجمة إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية واليابانية

وغيرها؛ وأصدر عنه الدكتور مصطفى الكيلاني كتاباً دراسياً بعنوان: "شربل داغر: الرغبة في القصيدة"، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، 2007.

- **في ترجمة الشعر والشعراء:**
  - "العابر الهائل بنعال من ريح" (ترجمة رسائل رامبو إلى العربية)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1985، طبعة ثانية، 2005، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس)،
  - "دم أسود" (مختارات شعرية إفريقية)، دار المحيط، أصيلة (المغرب)، 1989،
  - "أنطولوجيا الشعر الزنجي – الإفريقي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – عَمان، 1998،
  - "الوصية" لريلكه، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، 2001،
  - "شملٌ تشابه ضائع" (مختارات من شعر أندريه شديد)، سلسلة "إبداعات عالمية"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001،
  - "ليوبولد سيدار سنغور: طام – طام زنجي"، سلسلة "إبداعات عالمية"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2002.

- **في الرواية:**
  - "وصية هابيل"، شركة رياض نجيب الريس للنشر، بيروت، 2008،
  - (تحقيق وتقديم) "وَيْ. إذن لستُ بإفرنجي" (1859)، لخليل الخوري، دار الفارابي، بيروت، 2009،
  - (ترجمة) "الرجال الذين يحادثونني" لآناندي ديفي، سلسلة "إبداعات عالمية"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2012.

• **في الأدبيات:**

- "التقاليد الشفوية العربية" (بالفرنسية)، منظمة اليونسكو، باريس، 1985،
- "الشعرية العربية الحديثة"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988، طبعة ثانية، دار مختارات للنشر، عَمان، 2006،
- (إشراف) "سنغور: الإفريقي ذو النزعة الإنسانية"، (بالفرنسية)، دار إديفرا، باريس، 1991،
- (إشراف) "العربية في لبنان"، منشورات جامعة البلمند، 1999،
- (إشراف) "عصر النهضة: مقدمات ليبرالية للحداثة"، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، 2000،
- "العربية والتمدن: في اشتباه العلاقات بين النهضة والمثاقفة والحداثة"، دار النهار للنشر، بيروت، مع منشورات جامعة البلمند – لبنان، 2008،
- "الشعر العربي الحديث: القصيدة العصرية"، منتدى المعارف، بيروت، 2012.

• **في الجماليات:**

- "الحروفية العربية: فن وهوية"، شركة المطبوعات الشرقية، بيروت، 1991،
- "مذاهب الحسن: قراءة معجمية–تاريخية للفنون في العربية"، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، بالتعاون مع "الجمعية الملكية للفنون الجميلة" في الأردن، 1998، طبعة ثانية، وزارة الثقافة، عَمان، 2012،
- "الفن الإسلامي في المصادر العربية: صناعة الزينة والجمال"، المركز

الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، بالتعاون مع "دار الآثار الإسلامية" في الكويت، 1999،
- "اللوحة العربية بين سياق وأفق"، المركز العربي للفنون، الشارقة، 2003،
- "الفن والشرق: الملكية والمعنى في التداول"، الجزء الأول: "النادر والعريق"، المركز الثقافي العربي، بيروت–الدار البيضاء، 2004،
- "الفن والشرق: الملكية والمعنى في التداول"، الجزء الثاني: "الفن الإسلامي"، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، 2004،
- "العين واللوحة: المحترفات العربية"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، 2006.
- (ترجمة) "ما الجمالية؟" لمارك جيمينيز، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

مؤلف (مع أربعة مؤلفين أجانب) للفيلم الإلكتروني (Art in the Islamic world)، "فن في العالم الإسلامي"، شركة "أوريكس للإنتاج" (فرنسا)، عن أجمل مجموعة منتخبة من الفن الإسلامي، 2001،

تُرجمت دراسات مختلفة له في الفنون القديمة (الشرقية والإسلامية) والحديثة (الغربية والعربية) إلى الإنكليزية (الولايات المتحدة الأميركية) والألمانية والفرنسية وغيرها.

- **في التاريخ:**
  - "تنورين في الحقبة العثمانية: حجر، بشر، عامر وداتر"، دار الفرات للنشر والتوزيع، بيروت، 2006،
  - "بين السلطان والمقاطعجيين والعوام: الحراك والافق"، دار سائر المشرق، جديدة المتن (لبنان)، 2013.